الحصار

قصة بقلم أحمد سويد

عندما خطا خطوته الاولى الى الداخل ، غمره احساس غامض له طعم الخطيئة ، ونكهتها الفجة ، وسأوره شعور غريب ، صور له انه يضع قدميه على نخوم عالم شيطاني محرم العتبات .

وعندما توجه نحو رأفت الذي كان ينتظره في اقصى الملهى كاد يتعثر اكثر من مرة وهو يغربل في مشيته ، بارتباك طفل يواجه تجربته الاولى مع الخطوة .

ـ اهلا ماجد ، لقد تأخرت .

... وشده رأفت الى المقعد بجانبه ، وسأله بدهشة وهو يستبقي كفه بين راحتيه :

ـ انت ترتجف ، فهل الطقس في الخارج بارد لهذه الدرجة ؟

... وابتسم ماجد ابتسامة بلا معنى ، وجلس .

* * *

... كانت الكأس امامه مترعة . تأملها ، راقب الحبيبات التي كانت تطفو على السطح ثم تتلاشى بصمت . لاحظ الغبش الذي يغلفها من خارج . لامستها انامله بلا وعي ، فارتعش كأنه انما يلامس جلد افعى . آنب نفسه :

ـ هذه الرعشة هي واحدة من ترسبات ماضيّ الحسية . صحيح انني لم أذق الخمرة منذ خمس سنوات ، ولكنني تعودت أن اجعل من الافعى وجبتي المحببة حينما اكون هناك .

وتذكر مغامراته في جبال الجليل ، والمرات التي حاصره فيها العدو في التحولة والجولان ... وكاد يستغرق في هذه الذكريات لولا ان فاجأه صوت رأفت وهو يرفع كأسه :

ـ بصحتك يا ماجد .

... ورفع الكأس ببطء وشرود ، دون أن يشرب ، ولم يلحظه رأفت ، لانه كان مسمر العينين على حلبة الرقص .

... وأجال بصره في القاعة ، فدار رأسه قليلا ، وشعر بغثيان خفيف ، ولفته كآبة غامضة لها مذاق الغربة .

... واستفردته نفسه فهمست له بخبث :

ـ ما الذي جاء بك الى هذا المكان يا ماجد ؟ وماذا جئت تفعل هنا ؟

فبلع ريقه بضيق ورد عليها :

ـ وأنت ، لم كل هذا التزمت ؟ أفلا يحق للثائر ان يحتفل بعيد رأس السنة كما يحتفل الآخرون ؟

ـ الآخرون ؟ وهل هناك آخرون سواهم ؟

... وأمسكت بخطام خياله ، وطارت به الى مرابضهم في الخنادق الموحلة حيث كانوا يجثمون ، وقبضاتهم تتجمد على رشاشاتهم من شدة البرد ، فانتفض بعصبية ، وامتدت يده الى الكأس امامه وكرع

ـ هي ليلة عابرة ، ولن تستطيع احداثها ان تخدش صفائي الثوري ..

ثم مال على رأفت يلكزه :

ـ رأفت ، نحن خنفوشان وحيدان على هذه الطاولة ، ألست ترى انه ينقصنا ان تكون معنا قطة ؟

... وأجاب رأفت بثقة :

ـ ليس اسهل من ان نستدرج الينا واحدة ، فالقطط تجذبها رائحة الشواء دائما ، لا سيما في مثل هذه الليلة ، ولكن قل لي : أتريدها شقراء أم سمراء ؟

... ولم ينتظر رأفت الجواب ، بل نهض فأسر في اذن احد الخدم كلاما قصيرا ، ولم تمض لحظات حتى كانت احدى قطط الملهى تتهادى بفنج ، نحو الخنفوشين ، فتستقر بينهما .

... وينتصب « الآخر » في نفس ماجد يعنفه :

ـ ماجد ... لم تمض عليك ساعة في هذا القبو ، ومع ذلك فقد بدأت تنحدر وتتدجن ..

فينفض ماجد رأسه مرات ليطرد منه « الآخر » الذي تلبسه ، ولكن هي ذي مجموعة من رفاقه تتسلل تحت جنح الظلام للقيام بمهمة في الارض المحتلة . انه يكاد يسمع تهامسهم ، ووطء نعالهم الطرية ، ولهاثهم المكبوت . هوذا « ابو الخير » يعود بمن تبقى من مجموعته ، وهم يحملون جرحى المعركة التي خاضوها ، ويمسحون عن الجباه جداول الدم الذي يتدفق من الجراح المفتوحة . ما اروع ان تتوافد جداول الدم والعرق ، وان تغوص الجباه في دفء الجراح النازفة العميقة .

... وتموء « القطة » بدلال :

ـ يا للعار . كأساكما ما زالتا مترعتين ؟

... وينحمس رأفت ، فيدفع الى جوفه كل ما في كأسه ، ويتلمظ ، أما ماجد فيرفع كأسه ولكن يمينه تتجمد في منتصف الطريق الى شفتيه

لكأنه يراهم بعينيه : مجموعة من كوماندوس العدو تغير على قاعدة « الصمود » فيقاومها رجالنا بضراوة ، ولكن بعض عناصرها يتمكنون من الوصول اليها وتدميرها .

ـ مستحيل ، هذا غير ممكن ...

... وتسقط الكأس من يده ، ويندلق الشراب على ثوب القطة الابيض :

ـ ياه .

ـ آسف يا عزيزتي ، آسف .

ـ بسيطة .

ـ المعذرة يا عزيزتي ، المعذرة .

ـ قلت لك بسيطة .ولكي تنسى هيا بنا الى الحلبة ، فانا احب هذه الرقصة .

... وينهض ماجد ، بتشجيع من رأفت ، ولكنه يشعر وهو يتجه نحو الحلبة أن رجليه مقيدتان ، مشدودتان الى صخرة ضخمة ، موثقتان بحبال غير منظورة .

... وتجره القطة من ذراعه ، وتدخل به دائرة الضوء ، ولكنه يشعر وهو يخاصرها انه كحمار الناعورة ، يدور بلا وعي ، او بوعي حزين يمازجه حس الاضطهاد ، وطعم القرف .

وتهمس القطة في أذنه بدلع ، وقد لاحظت شروده وانخطافه :

ـ هيه ... نحن هنا !

... ولكن « الآخر » يشده من اذنه الثانية ويأمره بأن ينصت .

بلاغ : قامت مجموعة من ثوارنا بهجوم مفاجيء على مستعمرة « كريات شمونه » في الهزيع الاخير من ليل امس ، وامطرتها وابلا

من صواريخها . خسائر العدو جسيمة في الارواح والمنشآت . سقط من ابطالنا شهيدان ، وفقد خمسة .

نداء . نداء . نداء . آتى غيفارا وصلاح الدين وعين النسر . نضج العنقود . اتكلوا على الله .

نداء . نداء . نداء . الى ش. م. و. : انتحلة في باب القفير. لا غيوم في السماء . انطلق .

... ويتوقف ماجد يتراخى سآعداه ، يزوغ بصره ، يفقد توازنه . يعتذر بأنه مريض ، ثم يعود مغموما الى مكانه بجانب رأفت فتلحق به آنعطة ، وترجمه بنظرات يمتزج فيها العبث بالجد :

ـ ماذا دهاك يا خائن ؟

... فيتدخل رأفت وهو ينهض نحوها :

ـ للحلبة فرسانها فهل تسمحين ؟

... ويستسلم ماجد لمشيئة « الآخر » فيتلقه هذا من ناصيته ويجره الى أحد المخيمات :

علب من تنك صدىء ، تعوم على بحر من الوحل والاقذار ، والجراثيم الناشطة ، تنحشر فيها آلاف من مخلوقات لولا دبيبها المتواني ، وحركتها البطيئة ، لظن أنها هياكل عظمية نخرة ، كدستها قوة مجهولة ، في مدينة واسعة للاموات . في عيون هذه المخلوقات كان يرتسم رعب ابدي . رعب من اللاشيء ، من المجهول ، من الغد ، حتى اذا انبعثوا هم من ركام هذا العالم الخرب المرذول ، وأطلوا ببنادقهم والق عيونهم ، بدأت الحياة تتململ في علب التنك ، ولكنها حياة من نوع آخر ، حياة تطل برأسها الحذر من بين الانقاض والحطام لترنو الى بنادقهم المشرئبة ، وتحلم ببارقة الامل التي تلمع في فوهاتها الضيقة .

... ويرده من رحلته القصيرة الخاطفة زعيق المغني الزنجي الذي كان ينطلق نفاذا كرنين صنوج مجنونة ، فيخترق جمجمته ، ويحفر في رأسه وأعصابه ، اخاديد طويلة عميقة ، سرعان ما تنساب فيها جداول من فلق مجهول المنابع ، وضيق خانق عاصف لا هوية له .

ويسأله رأفت بلهجة مشفقة :

ـ ماجد ... أراك لم تندمج في الجو بعد ، فهل هناك ما يشغلك؟

... وتتدخل « القطة » :

ـ لعله يحلم بحوائه البعيدة ؟

... ويشعر أن السكين تغور في جرحه حتى القبضة ، لتفجر من اعماقه شجنه العميق العتيق

نعم . لقد تركوها هناك في ضواحي يافا . لقد أبت أن تهرب معهم . قالت لابيه انها ستموت اذا حاولوا انتزاعها من ارضها . أكدت لهم ان دمها هو الذي يضرج وجنات البرتقال في بيارتهم وانها لن تسمح للشحوب ان يتسلل الى وجنات البرتقال .

لكأنه يراها الآن ، وهي مسمرة على الشط ، شعرها الاسود في قبضة الريح ، ويمناها تلوح لهم بمنديلها الابيض ، لقد كانت تحثهم على ألا يطيلوا الغيبة ، وتقضم بين الفينة والفينة اصابع يسراها ، وهي ترى البحر يضيق بزوارق الهرب : يا حيف عالرجال .

كان يومذاك طفلا لا يعي شيئا مما يجري حوله ، ومع ذلك ، كان يود من كل اعماقه لو يبقوه معها .

... ويعتذر لرأفت :

ـ لا مؤاخذة يا رأفت ، فأنا أشعر ببعض التوعك .

ـ سلامتك يا ماجد .

... ويثب رأفت مع قطته الى الحلبة ، فاغراء الرقصة الجديدة لا يقاوم .

... ويعصر ماجد رأسه بين يديه .

منذ اشهر ارسل لها صورته بزيه المرقط ، وكتب لها على القفا : « سنعود » . أقسم له الرفيق الذي حمل اليها الهديه انها لم تبك ، بل قبلتها ودستها في صدرها بخشوع وتمتمت : نحن ننتظركم .

يخيل اليه الآن انه يراها وهي راكعة تصلي . ها هي يدها تخرج الصورة من صدرها ، أو من صندوقها الصدفي الذي تعودت ان تخبىء فيه ذكرياتها واشياءها المقدسة . ها هي تحدق بها . عيناها تتسمران على رشاشه . أنفها على الفوهة تشمشم فيها رائحة البارود الطازج . انه لا يستطيع أن يتجنب بريق عينيها الذي يشرقط نعنيفا وعتابا .

« لقد طالت غيبتكم ... يا حيف عالرجال » .

... يمه ... حدقي جيدا في الصورة ، ألا ترين الاخدود فوق حاجبي الايسر ؟ منذ شهرين يمه ، كنا في زيارة ليلية لاريحا . داهمنا مخفرا اماميا تلعدو . فاجأنا جرذان الليل وهم في خنادقهم . كان الظلام رهيبا لا تلتمع فيه احيانا سوى عيون القطط الشاردة وشفار خناجرنا . ارتوت خناجرنا ، يمه ، أحد الحراس انشب اظافره في وجهي . شد الخنزير قبل أن يسقط . شد حتى احسست ان قطعة من جبيني قد علقت باظافره . وتذكرتك ، يمه ، لا أدري لم سد وجهك الاسمر الافق في وجهي فلم أعد أرى سواه . يمه ، لقد ابيض شعرك ، وملأت التجاعيد وجهك . صحيح لقد طالت غيبتنا عنك . طالت كثيرا ... ولكن الوطن لا يشيخ ، يمه ، الارض لا تشيخ ، العزيمة لا تشيخ . وركزت نظري على شفتيك ، لمحت عليهما طيف بسمة مختزلة ، بسمة رضى غير مكتمل . معك حق ، يمه ، ويا حيف عالرجال .

* * *

كان عقربا الساعة قد بدآ يتأهبان للعناق العجيب الذي ينبثق من لحظته المخاض ، ذلك المولود المنتظر .

... وكانت القاعة قد بدأت تشتعل بالشبق : الموسيقى الصاخبة المنهمرة تحاول ان تفر من سجنها الضيق الى اللامدى ، ولكنها تصطدم بالنوافذ المحكمة الاغلاق ، فترتد ، لترتطم بدوي وفرقعة ، ببلاهة الجدران الصماء .

... وعيون الرجال التي اشعلها السكر وضرام الرغبة بدأت تنهش ما تكدس امامها وحواليها من اجساد ، زادها العري ، وجنون الرقص ايناعا وفتنة وسهولة انقياد .

... وجو القاعة بدأ يختنق بالعطر المسفوح والانفاس اللاهبة والضجيج الوحشي ، والعرق المدبق ، ووهج الاشتهاء .

وصراخ المغني الزنجي يزداد حدة وينطلق كالسوط الذي يلسع الاقفية ، ويستحث الغرائز لتخرج نهائيا من دهاليزها السحيقة بلا تحرج ولا خشية .

والطبول تهيء كل ما في بطونها الواسعة من دوي ، كأن سبافها مع الصنوج قد بلغ أعلى ذروات التحدي المتبادل .

والساهرون ، يستسلمون الى هستيريا موسمية يستغلونها في مثل هذه اللحظات الفاصلة بين عام مدبر وآخر مقبل ، لاستباحة ما لا يباح ! فاذا « الاطراطير » تقفز من رأس الى رأس ، والزمامير من فم الى فم ، واذا حبال الورق الملون تلتف حول الاعناق كما تلتف السيقان والنظرات والرغبات .

وينطفىء الضوء ، ويسود الصمت .

... ويشعر ماجد بقبضة « الآخر » تلتف حول عنقه كحبل المشنقة ، فتضيق أنفاسه ، ويكاد يختنق ، فينسل مسرعا الى خارج القاعة ، حتى اذا صار في الهواء الطلق ، فرك عينيه وتحسس اطرافه ، وبصق ، ثم تنفس براحة وعمق .

بيروت

احمد سويد